المحاضرة06: رثاء المدن والممالك

1/رثاء المدن:

كانت فترة دول الطّوائف بالأندلس (ق5هـ) فترة قاسية على الأندلس من الناحية السياسية والعسكرية فقد دخل كثير من الدويلات في خصومات في ما بينهم وكانت أحيانا خصومات عنيفة، اشتبكت فيها الأسلحة وأُريقت الدماء، وعاش ملوك الطّوائف حياة ترف وسرف، وضيّعوا رسم الجهاد وأسرفوا على النّاس في أخذ الضّرائب.

ولا شكّ في أنّ هذه الحال أضعفت المسلمين في الأندلس، وأتاحت للعدو بُرْبَشتر وطليطلة وغيرها من النواحي، وقد سجّل الشّعر هذه الكوارث، وقدّم الشّعراء رؤيتهم، واستنهضوا الهمم، ورفعوا صوت الاستغاثة.

نظم عدد من الشّعراء قصائد ومقطوعات تذكر ما أصاب دول الطّوائف من الإزالة أو الانهيار في تصوير تاريخي أدبي لما أصاب تلك الدّول من الزّوال والانهيار، فوصفوا النكبات الّتي أصابت الأندلسيين من ويلات.

وكان صوت الشّعراء في هذا الموضوع صوتا يصدر في معظمه عن وجدان الأمة، وظروفها القاسية، وبين أجزاء الأمة ويستنهض الهمم، ويدعو إلى الجهاد حتى لا يضيع رسمه، لقد أدّى الشّاعر في هذا المقصد واجبه في التّنبيه والنّداء، ودقّ ناقوس الخطر.

تلونت أشعارهم بحسب المواقف وخطورتها وبحسب طبيعة الشّاعر وحماسته، وأسلوبه الشّخصي، ولكنّها جميعا كانت مؤثّرة معبرة عن وجدان الأمة، صادقة في توصيل الفكرة وبلوغ

المقصد، كانت على جانب من الحماسة والانفعال، وقد وصف "عبد الله بن محمد المورواري" هجوم النورمانديين بغتة على إشبيلية وبعض أطراف الأندلس الجنوبية والجنوبية الغربية، وكان ذلك سنة 230 فقد هجم النورمانديون (ويسميهم المسلمون مجوسا لكونهم وثنيين) بأسطول قوامه ثمانون مركبا، ودخلوا إشبيلية من جهة البحر وعاثوا فسادا.

يقول "عبد الله بن محمد المورواري" واصفا ما أصاب قومه في هذه الغزوة:

لِتبْكِ لِقتلاها العيون السواجـم فقد عظّم الخطبَ الخطوب العظائم

ألا إنّ فيض الدّمع هاج هـموله رجال ثووا في الحـرب صيْدٌ أكارمُ

إلى الله أشكو لا إلى غيره الّذي دُهينا بـه، والله حنّـان راحِم

ألّمت بأبناء الجـزيرة أمّـةٌ مجوسية الأنساب مُـغْرُ أشائم

وفي سنة (478هـ) سقطت مدينة طليطلة وما يتبعها في يد ألفونسو ملك قشتالة، فضاعت من يد بني ذي النون المتهاونين في حقّ البلاد المضيّعين لحقوق الوطن، وقد كتب شاعر أندلسي نسي التّاريخ اسمه رثى فيها المدينة، ونعى على الحكام تقصيرهم في الدّفاع عنها مطلعها:

لثكلك كيف تبتسم الثّغور سرورا بعدما سُبيت ثغور

ويقول فيها:

لقد خضعت رقابٌ كنّ غُلْبا وزال عتوّها ومـضى النّفورُ

وهان على عزيز القـوم ذلٌّ وسامح في الحريم فتى غيورُ

طليطلةُ أباحَ الكفر منـها حماهـا إنّ ذا نـبأٌ كبير

وهي أشعار حماسية فيها وصف الحال الرّاهن بكلّ ما فيها من ظلال مأساوية، وفيها اندفاعة العربي المسلم وقد استُبيح حماه.

وفي القرن السابع حين ضاقت الأرض على الأندلسيين وانحصرت في حدود مملكة غرناطة، وسقطت العشرات من المدن والقرى والقلاع والمساحات الواسعة من الأراضي ارتفع صوت أبي البقاء الرندي واصفا المشهد المأساوي بعد ذلك الانهيار الرّهيب:

ولو رأيت بكاهم عند بيعهم لهالكَ الأمرُ واسْتهوتكَ أحزانُ

يا رُب أمّ وطفلٍ حيلَ بينهما كــما تُفرَّق أرواحٌ وأبـــدانُ

ومن أجمل ما قيل في بكاء المدن من شعر الأندلس نونية أبي البقاء الرندي الّتي لم تكن رثاء لمدينة بعينها وإنّما كانت رثاء للأندلس كلّها:

لكلّ شيء إذا ما تمّ نقصان فلا يُغرّ بطيب العيش إنسان

من الطّوابع العامة الّتي ميّزت هذه الأشعار:

- الحماسة لاستنهاض الهمم كقول ابن الأبار:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إنّ السّبيل إلى منجاتها درسا

وقول "عبد الكريم القيسي الأندلسي:

أفيقوا أفيقوا واهجروا النّوم إنّه حدبث صحيحٌ ما أقول وما أحكي

-تردّد الشّعراء بين اليأس والأمل

-الميل إلى الحكمة

-العاطفة الحزينة في الشّاعر

دون أن ننسى مرثية "ابن رشيق" لمدينة القيروان" وكذا مرثية "ابن شرف (آه للقيروان).

ويتميّز هذا النّوع من الشّعر بالبساطة والسّهولة في معانيه، وتتلاحق جمُله وعباراته، ونلاحظ ظهور الأفكار بشكل واضح دون عناء أو غوص بعيد وراء الفكرة، أو طلب للصورة البعيدة الغريبة؛ لأنّ هذا الشّعر أصلا هو وليد الانفعال والأحاسيس العارمة، وفي مثل هذا الحال تغلب العاطفة وتكون العنصر السّائد.

وخلاصة القول أنّ الشّاعر الأندلسي شعر بألم شديد على رؤيته سقوط المدن الأندلسيّة واحدة تلو الأخرى، فتألّم وتوجّع وذكر ألمه بإيقاعات حزينة، والّذي جعل هذا الغرض يشيع في الأدب الأندلسي كثرة المآسي والحروب الّتي وقعت للأندلسيين.

2/رثاء الممالك:

أ.رثاء دولة بني عباد:

كان لسقوط إشبيلية في يد المرابطين أثره البارز في تحريك مشاعر الشّعراء وأقلامهم، فبكوا المجد الرّاحل لاسيّما وهم يشاهدون أفول نجم بن عبّاد، فكانت مأساة سقوطه أعظم أثرا في نفوسهم فجاء شعرهم من أنبل ما قيل في الرّثاء، وممّا كتب الشّاعر "ابن اللبانة" في هذا الموضوع قوله:

تبكي السّماء بمـزن رائـــحٍ غادٍ على البهاليل من أبناء عـــباد

على الجبال الّتي هُدّت قواعدها وكانت الأرض منهم ذات أوتاد

والملاحظ أنّ المراثي الّتي قيلت في زوال دولة بني عباد كلّها كانت موجّهة لشخص المعتمد ولا غرو في ذلك، إذ هو عبرة لتقلب الدّهر، يسوم بعد العزّ ذلاّ، وبعد الملك ذلا وهوانا، ومنها ما جاد به "أبو بحر بن عبد الصمد" وهو واقف على قبر المعتمد:

ملك المــلوك أُســامـــع فأنادي أم قد عَدَتْكَ عن السّماع عواد

لما خلَتْ منكَ القصورُ ولم تكن فيها كــما قدْ كنتَ في الأعيادِ

والمراثي الّتي قيلت في رثاء بني عباد كثيرة.

ب.رثاء بني الأفطس:

بنو الأفطس هم سلالة بربرية حكمت مدينة بطليوس في الأندلس ولم تكن هذه المدينة أحسن حظا من إشبيلية، فقد عمد المرابطون إلى خلع ملوك الطوائف بعدما تبيّن لهم ضعفهم قاصدين من وراء ذلك توحيد الدّولة الإسلامية تحت قيادة مرابطية. فعقب سقوط دولة بني الأفطس ظهرت مرثية "ابن عبدون" مليئة بالأسى والحسرة والتفجع، وقد حشد فيها ابن عبدون الكثير من أحداث تاريخ العجم والعرب وما مرّ بالدول والملوك من تقلبات الدّهر، وذلك قصد العظة والتأسي ثم انتقل إلى تعداد مناقب قتلى بني الأفطس مثل الشّجاعة والفروسية والتدين يقول فيها:

الدّهرُ يفجع بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح والصور

أنهاكَ أنهاكَ لا آلوكَ موعظةً عن نومة بين ناب الليث والظُفر

وعموما لو نظرنا إلى هذه المراثي نجدها تركّز على أسباب الهزيمة، وسقوط المعالم الدّينية وتحول المساجد إلى كنائس، واستحضار الماضي المجيد والحاضر المهين.